معاوية بن أبي سفيان ناقداً

علي كمال الدين الفهادي*

((اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم فأن فيه أثر أسرفكم)) [١]

(معاوية)

كانت مجالس الخلفاء سوقاً يروج فيها الأدب ، انشاده ونقده ، وكان اهتمام الأمويين بالشعر والشعراء واضحاً جلياً أدى الى ازدهار الأدب فتبنوا مكاناً رفيعاً بين الخلفاء والرعية ، فكان الشعراء يحملون أشعارهم الى دور الخلافة فيصدرون عنها بجد الحقائب وانما " السلطان سوق فما نفق عنده حمل اليه " [٢] وقد كان عصر معاوية بن أبي سفيان مشجعاً للأدب ونقده لما توافر رفيه من هدوء المال وأستقرار الدولة [٣] . وليس من شك في أن دور الخليفة في توجيه الأدب ورعايته وتشجيعه يؤول الى صالح الأمة والفن على حد سواء، وأن هذا التوجيه حق من حقوقه بل واجب من واجباته وأن ما ينشده الخليفة أو يستنشده الشعراء من موضوعات الشعر ومعانيه وصوره يشجع ذلك النمط وتلك المعاني والتجارب والصور ، ويعد انشاده نمطاً من أنماط الشعر أو لوناً من ألوانه وموضوعاً من موضوعاته حثاً للأدب على السير في ذلك النهج والقول في تلك المعاني والموضوعات ، وكذلك الأمر في ما يستحسنه من شعر ويثيب عليه ، فأن اعجاب معاوية بشعر عمرو بن الأطنابة الخزرجي وانشاده أبيات الشاعر في مجلسه وقوله فيها : " لقد وضعت رجلي في الركاب يوم صفين غير مرة ، فما يمنعني من الأنهزام الا أبيات أبن الاطنابة[٤].

---

* جامعة الموصل

أبت لي عفتّتي وأبى لي برئي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
واعطائي على الاعدام مالـــي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلّما جشأت وجاشـــت مكانك تحمدي أو تستريحـــي
لأدفع عن مآثر صالحـــــات وأحمي بعد عن عرض صحيح

لايمكن الا أن يعد حثاً على الثبات في الحرب والصبر عليها وفي الوقت نفسه حث على قول مثل هذا الشعر وحفظه وروايته ليرفع روح الحماســـة فـــي نفوس الرعية والجند في الجهاد وان انشاده ليعد بمثابة اقرار هـــذه المقطوعـــة نشيد حرب يرافق نفخ أبواقها وقرع طبولها .

لقد كان معاوية يحسن دور الناقد الموجه ويعرف آثار الشعر في النفوس وعلى الناس ونظرتهم اليه والى شعرائه وموضوعاته ، فقد نهى عبد الرحمن بن الحكم أحد أبناء عمومته عن التشبيب بالنساء ، والهجاء والمدح ، ونصحه بقـــول الفخر والمثل والحكمة ، فقال له " انك قد لهجت بالشـــــعر ، فايـــاك والتشـــبيب بالنساء فتعرّ شريفة ، والهجاء فتهجن كريماً أو تثير لئيماً ، واياك والمدح فـــهو كسب الأنذال ، ولكن افخر بمأثر قومك وقل من الأمثال ما تزيـــــن بـــه نفســك وتؤدب به غيرك ، وان لم تجد من المدح بداً فكن كالملك المرادي حيـــن مـــدح فجمع في المدح بين نفسه والممدوح فقال (٥)

أحللت رحلي في بني ثعل ان الكريم للكريم محل

فالخليفة ينهي عن التشبيب حماية لأعراض الناس وسمعة المرأة وعـــن الهجاء اعتزازاً بالكرام وخوفاً من شرور ألسنة اللئام لأن هذيـــن الموضوعيـــن يجران الى العداوة بين الناس قبائل وبيوتاً وهي عداوة من شأنها أن تضعف مـــن حدة المجتمع وتماسكه على حين يريد الخليفة بناء هذه الوحدة وتقويـــة تماســكها بين أفراد رعيته واشاعة المحبة بينهم بدلاً من البغضاء التـــي يثيرهـــا الـــهجاء ويوقد أحقادها ، نعم قد يسعد بذلك قومها وعشيرتها . ان نظـــرة معاويـــة الـــى

الشعر تقربه من نقاد القرن الثامن عشر من الاجانب " الذين كانوا أخلاقيين بالمعنى السطحي للكلمة ، لأنهم كانوا يطالبون الكاتب بأن يقدم في صورة مباشرة قواعد عامة للسلوك ، وكانوا يبحثون دائماً عن مغزى القصيدة الخلقي أو ما قد يستشف منها من درس أخلاقي ، فاذا لم يتضح فيها شيء من هذا حكموا على الشاعر بأنه لا يخدم قضية الأخلاق ، وهذا واضح في نقد الدكتور (جونسون) لأعمال شكسبير " [٦] ولربما يقول قائل ان معاوية حذّء من هذين الموضوعين لأن للشاعر صلة قرابة وقد تتسع دائرة الهجاء فتشمل قريشاً كلها فلا يسلم منها وربما ظهر لمعاوية من يتغزل كيداً بتشبيب عبد الرحمن بن الحكم – بنساء قريش عامة ونساء الخلافة خاصة ، نقول ربما كان ذلك ولكن حرصه على قول الفخر والأمثال والحكم له أكثر من شاهد على توجيه الشعر تلك الوجهة فقد شاع عنه أنه كان كثير الأنشاد لقول عبد العزيز بن زرادة [٧] :

قد عشت في الدهر أطواراً على طرق ... شتى تصادقت منه اللين والفظعا

لايملأ الأمر صدري قبل موقعه ... ولايضيق ذرعي به اذا وقعا

كلاً ليست فلا النعماء ينتظرني ... ولا تخشعت من مكروهها جزعا

فالشعر ينطوي على المفاخرة في الحكمة تصلح لكل امرئ يلقي من الدهر والناس تقلباً وهي حكمة يود أن تشيع في أهله وحكومته ورعيته وكان شغوفاً بانشاد الحكم التي تنطوي على العبر والمواعظ من مثل انشاده [٨] :

يأيها السائل عما مضى ... وعلم هذا الزمن العائب

ان كنت تبغي العلم أو أهله ... أو شاهداً يخبّر عن غائب

فاعتبر الأرض بسكانها ... واعتبر الصاحب بالصاحب

فالحكمة مبنية على التفكير والتدبير بالأجيال التي تعيش على الأرض ثم تذهب راحلة الى الآخرة ليس لها في الدنيا خلود ، وان الأصحاب لتتقلب بهم الأحوال فليأخذ كل امرئ عبرة مما يؤول اليه أمر صاحبه في الحياة . واذا

كانت الحكمتان السالفتان مبنيتين على فخر يصلح للناس عامة فـأن مـا ينشـده معاوية من حكمة لسعية بن غريض اليهودي في صواب الرأي والفصـل بيـن الخصوم ألصق بشخصية الخليفة قاضياً أو حكماً فالحكمة تصلح شعاراً وتوجيـهاً وتذكيراً لكل من أراد النظر بحق وعدل لينصف الخصم من خصمه والمظلـوم من الظالم ويمنع نفسه أن تميل بها دواعي الهوى فتصر منها عن الحـق ، فقـد كان معاوية " يتمثل كثيراً اذا اجتمع الناس في مجلسه بهذا الشعر [٩] :

انا اذا مالت دواعي الهوى وأنصت السامع للقائل
واصطرع القوم بألبابهم في المنطق الفائل والفاصل
لانجعل الباطل حقاً ولا نلطّ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا فتحمل الدهر مع الخامل

ان من حق الخليفة بل من واجبه أن يوجه الشعر نحو التزام المـهتمين الانسانية الاسلامية التي ترتفع بالأخلاق والعقيدة وأن يشـجع الشـعراء الذيـن يشيعون في شعرهم الأفكار والمعاني التي تبني الانسان وتنفع الأمة وبما يحسـب الشاعر فيه حساب الفن ولا يهمل شروطه وجمالياته فيسقط في الوعظ المباشـر والنظم المجرد ذلك أن الشعر على نحو ما يرى حازم القرطاجني " من شـأنه أن يجيب الى النفس ما قصد تجيبه اليها ويكرّه اليها ما قصد تكريهه...بحسن هيـأة تأليف الكلام أو قوة صدقه ، أو قوة شـهرته ، أو بمجمـوع ذلـك " [١٠]ولابـد للشاعر من الموازنة بين الافكار والمعاني والخيال الذي يركـب هـذه المعـاني ويصوغها صوراً مختلفة فأن " التخييل هو قوام المعاني الشعرية ، والامتناع هـو قوام المعاني الخطابية واستعمال الامتناعات في الأقاويل الشعرية سائغ اذا كـان ذلك على جهة الالماع في الموضع بعد الموضع ... (لاعمال الحيلة) في القـاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر لمقتضـاه [١١] " ويؤيـد الدكتـور محمـد

مصطفى هدارة المضمون الانساني للتجارب التي يعبر عنها الأدب اذ ينبغي أن تكون مؤثرة ومتأثرة بالنسبة لأوضاع معينة في المجتمع [١٢] .

فتوجيه الخلفاء – ومنهم معاوية – الشعر الوجهة الأخلاقية الأسلامية تجعله ذا غاية انسانية فهو أدب الانسان العربي في أمته يحرص على ابراز دور العقيدة في حياة الانسان مع الاحتياط الكامل من أن تصبح خطابة وعظية أو بلورة فلسفية تبعد بالفن عن طريقته وأهدافه وميدانه الخاص [١٣] .

ان الناقد عندما يتناول نصاً أي نص فانه يفككه الى أجزائه الأولى وينظر اليه من زاويتين هما " الشكل " أو الهيكل الذي يحتوي على المعاني والأفكار والأراء و" المضمون " الذي هو المعنى ومافيه من عمق وضحالة وتعدد في المعالجة ومن أهميتة منبع اهتمام معاوية بن أبي سفيان بمعاني الشعر التي تنسجم مع شخصية الأمة وقيمتها والذي كان واضحاً في تفضيله الشعراء أو شعر القبائل والمفاضلة بين المعاني وربما تكون ظاهرة نقد المعاني والاهتمام بالمضامين عامة في نقد الخلفاء والأمراء في العصر الأموي فيكثر تطبيق المعيار الخلقي والأجتماعي في تقدير الشعر لأن تلك المجالس تصطبخ بطابع ملكي من الوقار الأصيل أو المصطنع مما ينسجم مع مقام كل مجلس ورفعته وقد كان طرد المعيار الخلقي من التقدير هناك ابتذالاً لا يليق بمقام الحاضرين . ثم ان جوّ المجلس الذي يعتمد على الادلاء الموجز والارتجال يوافقه الكلام الحكيم الذي يورد خلاصة لتجربة في الحياة واضحة وتوجيهاًرصيناًيفيد منه المجتمع ما يثبت دعائمه ويرسي قواعده وفي ذلك خدمة للدولة في تثبيت الحكم والسلطان ولكن هذا كله لا يعني التفاتاً عن تذوق الجمال أو غضاً له ، فالحكمة في تلك المجالس يجب أن تحمل في أطباق جميلة تحببها " لمتلقيها "[١٤] .

ولقد أحدث الاسلام تغييراً كبيراً في حياة العرب فأخرجهم من مجتمع القبيلة الى مجتمع الأمة وصارت لهم دولة كبيرة واسعة وتغيرت نظرة الانسان

الى دوره في الحياة والكون وصارت له قيم جديدة فضلاً عن القيم الايجابية التي أمرها الاسلام وأبقاها ومن ذلك كله تغير الذوق العام وتغيرت المقاييس الأخلاقية التي يستند اليها الشعر وتغيرت العادات والتقاليد ونوع الثقافة وأرتفع المستوى الثقافي عند الاديب والمتلقي على حد سواء فصار الاسلام حضارة العصر وثقافته ، ومع ذلك لم نجد في عصر معاوية وربما في العصر الأموي ناقداً ينظر من خلال ذلك كله الى الشعر نظرة تفضي به الى نقد عام متكامل يبدأ بالتذوق والقدرة على التمييز ثم التفسير والتعليل فالتحليل فالتقييم وذلك على نحو ما يرى الدكتور احسان عباس لأن تراث الأمة الشعري كله شقوي لم يدون في معظمه ولم يجد العصر ناقداً متفرغاً له تفرغاً تاماً [١٥] .

ومن ألوان النقد الذي أعتمده معاوية الاعجاب بشاعر وتفضيله على من سواه من الشعراء من مثل تفضيله طفيلاً الغنوي الذي كان من أوصف العرب للخيل .. فقال معاوية : دعوا لي طفيلاً وسائر الشعراء لكم [١٦] . ويوافق اختياره طفيلاً قول الجاهليين فيه : كان " من الفحول المعدودين ... ومن أقدم شعراء قيس وهو من أوصف العرب للخيل ، وكانوا يسمونه طفيل الخيل والمحيّر لكثرة وصفه اياها " [١٧] . ولربما كان الاختيار تابعاً من كون معاوية خليفة وقائداً يريد لأمته أن تعني بالخيل تربية وبالشعر الذي يحسن وصفها فناً وثقافة كونها سلاحاً من الاسلحة الرئيسية التي تحسم نتائج المعارك والتي أشار اليها القرآن الكريم (وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوا الله وعدوكم) [١٨] .

وليس كثيراً على هذا هذا الخليفة أن يكون موقفه النقدي نابعاً من موقفه القيادي في الاهتمان بالخيل خاصة اذا علمنا أنه من أوائل العرب الذين شاركوا في المعارك البحرية وأسس أسطولاً بحرياً يمخر عباب البحر ويحمي شواطئ المسلمين من أساطيل الروم [١٩].وكان يفضل شعراء مزينة على شعراء القبائل

الأخرى ويقول : " كان أشعر أهل الجاهلية منهم وهو زهير ، وكان أشعر أهل الاسلام منهم وهو ابنه كعب ومعن بن أوس " [٢٠] . ونحن نعلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فضّل زهير بن أبي سلمى على سائر الشعراء لأنه " لايعاظل في الكلام وكان يتجنب وحشيّ الشعر ولم يمدح أحداً الا بما فيه " [٢١] . وليست المرة الأولى هذه التي يتبع فيها معاوية أحكام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأسلوبه في التعامل مع الشعر والشعراء فقد أستعمل أسلوب عمر – الذي حاول فيه ارضاء ابن مقبل العجلاني عندما استعداه على النجاشي الحارثي مخففاً وقع الهجاء عليه [٢٤] لمعالجة الشكوى التي قدمها اليه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري فقال له : " يا أمير المؤمنين ، ، ان عقيبة أخايني أسد هجلني . فقال ر: وما قال لك ؟ قال : قال لي :

فما أنا من حداث أمك بالضحى

فقال له معاوية : ليس من حداثها ! قال : وقال لي :

ولا من يزكيها بظهر مغيب

فقال معاوية : لكن الله ورسوله والمهاجرين والأنصار يزكزونها ، وكانت تخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وقال لي :

وأنت امرؤ في الأشعرين مقابل

فقال : صدق . قال : وقال لي :

وفي البيت والبطحاء حق غريب .

فقال : صدق ليس لك في البيت ولا في البيت ولا في البطحاء حق : قال : يا أمير المؤمنين فدعه على هذا ؟ قال : ما قال لي أشد مما قال لك (وأنشده أبياتاً يتهم فيها الخلافة والأمراء بأكل أموال الناس وتأمير الاراذال والعبيد على الرعية ، وسترد في البحث) فقال : ياأمير المؤمنين : ما تصنع به ؟ قال : تعال ندع الله عليه " [٢٣] .

ولا نشك في أن معاوية قام بدور القاضي الذي يميله عليه الاسلام ألا وهو محاولة الاصلاح بين المتخاصمين ولايتم ذلك الا بتخفيف معاني الهجاء والتهوين من أثره لامتصاص نقمة المتخاصمين ولربما يكون الأمر بسبب خوف الخليفة من ألسنة شعراء الهجاء وهو خوف نلمسه عنده في سوى هذا الموقف وخاصة عندما تعرض للنابغو الجعدي اذ يروي انا البغدادي أن معاوية كتب الى عامله على الكوفة مروان بن الحكم أن يأخذ أهل النابغة وأمواله لخروجه مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه الى صنفين فلما أخذهم دخل النابغة على معاوية وعنده مروان وعبد الله بن مروان وأنشده [٢٤] :

من راكب يأتي أبن هند بحاجتي ... على التأي والأنباء تتمنى وتجلب

ويخبر عني ما أقول أبن عامر ... ونعم الفتى يأوي اليه المعصّب

فأن تأخذوا وأهلي ومالي بظنه ... فأني لحراب الرجال مجرب

صبور على ما يكره المرء كله ... سوى الظلم اني ان ظلمت سأغضب

فالتفت معاوية الى مروان فقال : ما ترى ؟ قال : أرى أن لا ترد عليه شيئاً فقال: ما أهون عليك أن يقطع عليّ عرضي ثم ترويه العرب ! أما والله أن كنت لمن يرويه ! اردد عليه كل شيء أخذته . فمن الجلّي البيّن أنه يخشى أن يتعرض الشاعر له فتذهب رواية الشعر بعرضه ولا يمكن رد الهجاء بعد ما قيل .

ومن يرجع الى أخبار هذا الخليفة مع الشعر والشعراء يجد له مواقف واصاف مبنية على الحلم ورحابة الصدر التي يتمتع بها العاقل الذي يتأمل عواقب الأمور ومصادرها قبل ايرادها ومنها انصاف ذوي الحاجات على الرغم مما في عرض حوائجهم من أساليب تنطوي على التهديد المبطن على نحو ما رأينا في قول النابغة : " اني ان ظلمت سأغضب " أو التهديد الصريح على نحو ما ورد في رقعة عقيبة بن هبيرة الأسدي التي دفعها الى معاوية حينما وفد عليه وفيها [٢٥] :

معاوية اننا بشر فاسجع فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا فجردتموها فهل أميرها وأبو يزيد
أتطمع في الخلود اذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود
ذروا أخون الخلافة واستقيموا وتأمير الأراذل والعبيد
وأعطونا السوية لاتزركم جنود مردفات بالجنود

فقال معاوية : ما جَرأك علّي ؟ قال : نصحتك اذ غشوك وصدقتك اذا كذبوك!
فقال : ما أظنك الا صادقاً ! فقضى حوائجه .

فلقد قبل النصيحة الصادقة في نقد سياسته وسياسة ولاته وعماله ايماناً منه بحرية الشعر وصراحة النقد وذلك يعني قبوله وربما تشجيعه أن يكون الشعر وسيلة من وسائل الرعية يحمل شكاواها الى دار الخلافة وتعرض القبائل والشعراء حوائجها منظومة ونقدها السياسة شعراً تهتز له النفس وتستجيب لايقاعه ومعانيه وبهذا يجعل للشعر دور الناقد لشؤون الحكم والخلافة . ولقد كان له موقف حكيم حليم من شعراء الغزل الذين تعرضوا لنساء الخلافة بشعرهم سواء في ذلك من كان منهم من قريش أو من غيرها فقد أورد صاحب الأغاني أن عاتكة بنت معاوية نزلت في طريق مكة عند ذهابها الى الحج فرآها أبو دهبل الجمحي " من قريش " ونظر اليها طويلاً حتى فطنت له فسترت وجهها وشتمته فقال [٢٦] :

اني دعاني الحين فاقتادني حتى رأيت الظبي بالباب
ياحسنه اذ سبني مدبراً مستتراً عني بجلباب
سبحان من وقفها حسرةً صبّت على القلب بأوصاب
يذود عنها ان تطلبتها أب لها ليس بوهّاب

أحلها قصراً منيع الذرى يحمي بأبواب وحجّـــــاب

وشاعت الأبيات بمكة وشهرت وغنّى فيها المغنون حتى وصلت الأبيات الى الشام فهرب الشاعر الى مكة خوفاً من الخليفة وأرسل رسالة شعرية الى عاتكة[٢٧] :

أعاتل هلاّ اذا بخلت فلا ترى لذي صبوة زلفى لديك ولاحقّا

رددت فؤاداً قد تولّى به الهوى وسكّنت عيناً لا تملّ ولا ترقا

ولكن خلعت القلب بالوعد والمنى ولم أر يوماً منك جوداً ولا صدقا

أتنسين أيامي بربعك مدنفـــاً صريعاً بأرض الشام ذا سقم ملقى

وليس صديق يرتضي لوصية وأدعوا لرائي بالشراب فما أسقى

وأكبر همي أن أرى لك مرسلاً فطول نهاري جالس أرقب الطرقا

فوا كبدي اذ ليس لي منك مجلس فأشكو الذي بي من هواك وما القى

رأيتك تزدادين للصب غلظة ويزداد قلبي كل يوم لكم عشقا

فوصلت الرسالة الى أبيها فبعث أبنه يزيد فأشار عليه بقتل أبي دهبل الجمحي فقال له معاوية : قد ضاق ذرعك بكلمة وقصّر فيها باعك حتى أردت أن تقتل رجلاً من قريش ! أوما تعلم أنك فعلت ذلك صدقت قوله وجعلتنا أحدوثة أبداً ! قال : يا أمير المؤمنين انه قال قصيدة أخرى تناشدها أهل مكة وسارت حتى بلغتني وأوجعتني وحملتني على ما أشرت به فيه . قال : وما هي ؟ قال : [٢٨] :

ألا لاتقل مهلاً فقد ذهب المهل وما كلّ من يلمى محباً له عقل

لقد كان في حولين حالاً ولم أزر هواي وان خوفّت عن حبها شغل

حمى الملك الجبار عني لقاءها فمن دونها تمشى المتالف والقتل

فلا خير في حب يخاف وباله ولا في حبيب لايكون له وصل

فوا كبدي اني شهرت بحبها ولم يك فيما بيننا ساعة بذل

ويا عجباً أني أكاتم حبهّا وقد شاع حتى قطعت دونها السبل

فقال معاوية : قد والله رفّهت عني ... وهو يشكو أنه لم يكن بينهاوصل ولا بذل فالخطب فيه يسير ، قم عني ... وحجّ معاوية في تلك السنة وأجازها أبا دهبل... وقال له : يا أبا دهبل ، مالي رأيت أبا خالد يزيد بن أمير المؤمنين عليك ساخطاً في قوارص تأتيه عنك وشعر لاتزال قد نطقت به وأنقذته الى خصمائنا وموالينا لاتعرض لأبي خالد فجعل يعتذر اليه ويحلف له أنه مكذوب عليه . فقال له معاوية : لابأس عليك ، وما يضرك ذلك عندنا ، هل تأهلت ؟ قال : لا . قال فأيّ بنات عمك أحب اليك ؟ قال : فلانة . قال : قد زوجتكها وأصدقتها ألفي دينار وأمرت لك بألف دينار [٢٩] .

فمعاوية هنا يحافظ على سياسة الشعرة [٣٠] مع الناس وخاصة مع قريش فهو لا يضع السيف في مكان ينفع فيه اللسان والدينار وقد عرف كيف يخرس الألسن التي روجت لهذا الشعر وكيف سكت صاحب الشعر طوعاً لا كرهاً وتلك لعمري السياسة التي تساس بها الرعية ، قال أبودهبل لما قبض الصداق : " ان رأى أمير المؤمنين أن يعفو عما قضى فان نطقت ببيت في معنى ما سبق فقد أبحت به دمي " [٣١] .

ولمعاوية موقف في الغزل مابنته رملة شبيه بموقفه من شعر الهجاء الذي أنشده أياه أبو بردة فقد خفف من وقعه وقيمته فقد روي أن يزيد بن معاوية قال لمعاوية : أما سمعت قول عبد الرحمن بن حسان في أبنتك ؟ قال : وما الذي قال ؟ قال : قال :

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوّاص ميزت من جوهر مكنون

قال مُعاوية : صدق ، فقال يزيد : وقال :

واذا ما نسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دوني

قال : صدق ، فقال : انه قال :

ثم خاصرتها الى القبّة الخضراء

قال معاوية : كذي " [٣٢] .

وفي رواية أنه قال للشاعر بشأن البيتين الأولين " والله ان فتاة أبوها معاوية وجدها أبو سفيان وجدتها هند بنت عتبة لكما ذكرت ، وأي شيء زدت في قدرها ! ولقد أسأت في قولك :

ثم خاصرتها الى القبة الخضـــــراء تمشي في مرمر مسنون

فقال : والله ياأمير المؤمنين ما قلت هذا ، وانما قيل على لساني . فقال له : أمـــا من جهتي فلا خوف عليك لآني أعلم صيانة أبنتي نفسها وأعرف أن فتيان الشـعر لم يتركوا أن يقولوا النسب في كل من جاز أن يقولوه فيه ومن لم يجـــز ،وانمـا أكره لك جوار يزيد ،وأخاف عليك وثباته [٣٣] فـــهو يـــرى أن تجربـــة الشـــعر ومعاناته في النسيب لايقف أمامها حاجز ولا تكتم ابداعها قوة أو سلطان . وقـــد كان هذا الشعر بسبب الهجاء الذي نشب بين عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان بن ثابت وهو أمر قد تنبه اليه معاوية بفطنته وفراسته يوم قـــال لعبـد الرحمن بن الحكم " اياك والتشبيب بالنساء ، فانك تعرّ الشريفة في قومها والعفيفـة في نفسها ، والهجاء فانك لا تعدو أن تعادي كريماً أو تستثير به لئيماً " [٣٤] وكـان حدسه صادقاً فقد صار وبال التهاجي بين الشاعرين عليه وعلى أبنته رملة علـــى الرغم من أنه رسم للشعر صراطاً لو سار عليه لما أساء الى سمعة أمرأة ولمـــا استثار لئيماً .

وبعد فربما كان معاوية أول من عدل عن قبول المدح بأوصاف الجســـد الى الفضائل النفسية والخلقية وخاصة في محاورته الأخطل في شعر الخنساء يوم وفد عليه فقال اني قد امتدحك بأبيات فاسمعها فقال : " ان كنت شبهتني بالحيّـــة ، أو الأسد أو الصقر فلا حاجة لي بها ، وان كنت قلت كما قالت الخنساء :

فما بلغ المهدون للناس مدحةً وان أطنبوا الا الذي فيك أفضل

وما بلغت كف امرئ متناولاً من المجد الا والذي نلت أطول

فقل " [٣٥] .

فعلى الرغم من بناء معاني قول الخنساء على المفاضلة في البيت الأول الا أنها مفاضلة تصاعدية في المعالي وضعت صخراً فيها فوق الاطناب والمبالغات وجعلت كفه تنال مالايناله غيره من المجد في صورة تصاعدية أيضاً والصورتان تجمعان قيم المرؤة وكل ما يعلي من شأن الشخصية في سلوكها وخلقها وقيمها . ولا شك في أن معاوية قد سبق عبد الملك بن مروان في عدوله عن أوصاف الجسد الى الفضائل الخلقية خلافاً لما رآه د.داؤد السلوم من أن عبد الملك من أوائل الذين أكدوا المدح بالفضائل النفسية والخلقية ونفى قبول المدح الذي يعتمد وصف المظهر والجمال في الرجال [٣٦] .

وهذا العدول عن أوصاف الجسد الى فضائل النفس هو من مقايس العرب في المفاضلة بين الرجال اذ نقل الينا حازم القرطاجني أن " أكثر ما تعتمد العرب به في المدح الأفعال التي تتجشم الأنفس فيها الضرر لنفع غيرها ممن أدنى أستحقاق أو حاجة الى ذلك "[٣٧] وهو مقياس أكده الاسلام وعززه التطور الحضاري الذي شهدته العرب في عصره .

وبعد فقد أحسن معاوية اختيار النصوص التي كانت موضع نقده ضمن المنهج الذي تيقن تطبيقه ويشترك معها فيي رؤية عالمه وموقفه من القضايا الفكرية في الثقافة بصورة عامة [٣٨] .

ولقد كان الخليفة أبن أبي سفيان متذوقاً للشعر عارفاً قدره ومكانته ودوره في حياة الناس والدولة فوجهه الوجهة التي أرادها لخدمة الأمة وشجع الشعر الذي يبني النفوس حرصاً منه على الرعية والدولة على حد سواء ..

الهوامش:

(١)الكامل للمبرد : ٢٣٥/٣ .

(٢)العقد الفريد : ١٢/١ .

(٣)تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، طه أحمد ابراهيم : ٣٧ .

(٤)أمالي القالي : ٢٥٨/١ ، وينظر : الحماسة البصرية : ٣/١ ، والممتع في صناعة الشعر : ٢٧ والزهرة : ٣٨١/٢ .

(٥)محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء : ٨١/١ والعقد الفريد : ٢٨١/٥ .

(٦)بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث : ١٢٩ وينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، احسان عباس : ١٧٤ .

(٧)التذكرة السعدية في الأشعار العربية : ١٦٢ والحماسة البصرية : ١١٦/١.

(٨)البيان والتبيين : ٥٤/١ .

(٩)خزانة الأدب : ٤٤٠/٨.

(١٠) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٧١ .

(١١) المصدر نفسه : ٣٦١-٣٦٢ .

(١٢) مقالات في النقد الأدبي : ١٥٩ .

(١٣) منهج الفن الأسلامي : ٢٠١ .

(١٤) مقالات في تاريخ النقد العربي : ١١ .

(١٥) الشعراء نقاداً : ٢٠٠ .

(١٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ١٤ .

(١٧) خزانة الأدب : ٤٧/٩ وينظر : الأغاني : ٥٧٠٣/١٦ .

(١٨) الأغاني : ٥٧٠٢/١٦ .

(١٩) سورة الأنفال ، من الأية : ٦٠ .

(٢٠) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري : ٢٥٨/٤-٢٥٩ .

(٢١) الأغاني : ٤٢٢١/١٢ .

(٢٢) المصدر نفسه : ٣٧٥٣/١٠-٣٧٥٤ .

(٢٣) استعدى بنو العجلان عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النجاشي

- هجانا . قال : وما قال لكم ؟ قالوا : قال :

اذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني العجلان رهط أبن مقبـــل

قال : انما دعا عليكم ، والله لايعادي مسلماً . قالوا . فقد قال :

قبيلة لا يفدون بذمة

قال عمر : ليتني من هؤلاء . فأنشدوه :

ولا يزدون الماء الا عشية اذا صدر الوّراد عن كل منهل

فقال : ذاك أمل للزحام . فأنشدوه :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم ويأكلن من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعاً بمن تأكل الكلاب لحمه .

فأنشدوه :

وما سمي العجلان الا لقولهم خذ العقب واحلب أيها العبد واعجل

فقال : كلنا عبد ، وسيد القوم خادمهم .

فقالوا ياأمير المؤمنين هجانا . فقال : ما أسمع ذلك ، انما دعا عليكم . قالوا :

فسل حساناً . فسأله . فقال : ماهجاهم ولكن سلح عليهم .

ينظر : الممتع في صناعة الشعر : ٢٢٢-٢٢٣ والزهرة : ٧٩٢/٢-٧٩٤ .

(٢٤) خزانة الأدب : ١٧٢/٢ .

(٢٥) المصد نفسه : ١٧٢/٢ .

(٢٦) خزانة الأدب : ٢٦٠/٢-٢٦١ . قائم : أي حيطان القرى ما بقي منها .

الحصيد : قد انمحى من حيطان القرى .

(٢٧) الأغاني : ٢٥٦٢/٧ والشعر في ديوانه : ٩٠-٩١ .

(٢٦) خزانة الأدب : ٢/٢٦٠-٢٦١ . قائم : أي حيطان القرى ما بقي منها . الحصيد : قد انمحى من حيطان القرى .

(٢٧) الأغاني : ٧/٢٥٦٢ والشعر في ديوانه : ٩٠-٩١ .

(٢٨) المصدر نفسه : ٧/٢٥٦٤ .

(٢٩) المصدر نفسه : ٧/٢٥٦٥ .

(٣٠) الأغاني : ٧/٢٥٦٦ .

(٣١) قال معاوية : اني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما أنقطعت .. اذا مدّوها أرخيتها ، واذا أرخوها مددتها . العقد الفريد : ١/٢٥ .

(٣٢) الأغاني :٧/٧٥٦٦ . وقد أختلفت الروايات ونسبة الأشعار وما دار حولها من كلام . ينظر ذيل الأمالي والنوادر للقالي : ١/١٨٨ والكامل للمبرد : ١/٢٩٧ . وشعر الغزل السياسي قبل الاسلام الى عصر بني أمية:٢١ والأغاني ١٥/٥٤٠٠ .

(٣٣) الكامل للمبرد : ١/٢٩٧-٢٩٨ .

(٣٤) المصدر نفسه : ١/٢٩٧-٢٩٨ .

(٣٥) الأغاني : ٧/٢٥٦٤ .

(٣٦) مقالات في تاريخ النقد العربي : ٧٥ .

(٣٧) منهاج البلغاء : ١٦٤ .

(٣٨) ينظر : بنية الخطاب النقدي ، حسين حمزي : ٥٠ .

المصادر:

القرآن الكريم

١-الأغاني ، أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (-٣٥٦هـ) ، تحقيق : ابراهيم الأبياري ، طبعة خاصة تصدرها دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩ م .

٢- الأمالي ، ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (-٣٥٦هـ) ، دار الفكر بيروت ، ١٣٤٤هـ =١٩٢٦ م .

٣- بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث ، د.يوسف حسين بكار ، دار الأندلس ، ط٢ ، لبنان ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

٤- بنية الخطاب النقدي ، د.حسين خمري ، دار الشؤون الثقافية ، ط١ ، بغداد ١٤١١هـ =١٩٩٠ م .

٥- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (- ٢٥٥هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مؤسسة الخانجي ، ط٣، القاهرة ، (د.ت) .

٦- تاريخ الرسل والملوك ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (- ٣١٠هـ)، تحقيق : محمد أبي الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ م.

٧- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري ، طه أحمد ابراهيم .

٨- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. احسان عباس ، دار الثقافة ، ط٢ ، بيروت ١٣٩٨هـ =١٩٧٨ م .

٩- التذكرة السعدية في الأشعار العربية ، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد (القرن الثامن الهجري) ، تحقيق : عبد الله الجبوري ، المكتبة الأهلية ، بغداد ، ١٣٩١ = ١٩٧٢ م .

١٠- الحماسة البصرية ، صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري (-٦٤٧ هـ) تحقيق : مختار الدين أحمد ، عالم الكتب ، ط١ ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م .

١١- خزانة الآدب ولب لباب العرب ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، ط٣ ،القاهرة ، ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م .

١٢- ديوان أبي دهبل الجمحي ، رواية أبي عمرو الشيباني ، تحقيق : عبد العظيم عبد المحسن ، مطبعة الفضاء ، النجف ، ١٩٧٢ .

١٣- ذيل الأمالي والنوادر ، أبو علي أسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ، دار الفكر بيروت ، (د.ت) .

١٤- الزهرة ، أبو بكر محمد بن داؤد الأصبهاني (- ٢٩٧ هـ) تحقيق : د. ابراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، ط٢ ، الزرقاء ، الأردن ، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٥ م .

١٥- الشعراء نقاداً ، د. عبد الجبار المطلبي ، دار الشؤون الثقافية العامة / ط١ ، بغداد ١٩٨٦ م .

١٦- شعر الغزل السياسي قبل الأسلام الى عصر بني أمية ، علي كمال الدين الفهادي مجلة آداب الرافدين ، العدد ١٩ لسنة ١٩٨٩ ، العراق ، جامعة الموصل .

١٧- العقد الفريد ، أبن عبد ربه الآندلسي (- ٣٢٧ هـ) ، تحقيق : أحمد أمين وآخرين ط٣ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ= ١٩٦٥ م .

١٨- الكامل ، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (- ٢٨٥ هـ) تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاتة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، (د.ت) .

١٩- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء ، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني (- ٥٠٢ هـ) . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د.ت) .

٢٠- مقالات في تاريخ النقد العربي ، د. داؤد السلوم ، دار الرشيد للنشر العراق ، بغداد ، ١٩٨١ .

٢١- مقالات في النقد العربي ، د. محمد مصطفى هدارة ، دار القلم ، القاهرة، ١٩٦٥ .

٢٢- الممتع في صناعة الشعر ، عبد الكريم النهشلي القيرواني ، تحقيق : د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الأسكندرية ، (د.ت) .

٢٣- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، أبو الحسن حازم القرطاجني (٦٨٤هـ) تحقيق : محمد الجيب أبي الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس، ١٩٦٦ م.

٢٤- منهج الفن الأسلامي ، محمد قطب ، دار القلم ، القاهرة ، القاهرة ، (د.ت) .